

بداية الاستشراق

هنالك اجتهادات متنوعة لتحديد بداية النشاط الاستشراقي في الغرب، يقول المستشرق الألماني المعاصر رودى بارت (Rudi - Paret) مترجم معاني القرآن إلى اللغة الألمانية - «إذا نظر المرء إلى الوراء، إلى تاريخ تطور الاستشراق.. فإنه يستطيع أن يقول: إن بداية الدراسات العربية والإسلامية - في الغرب - ترجع إلى القرن الثاني عشر؛ ففي عام 1143م تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه الراهب بطرس المحترم رئيس دير كلوني وكان ذلك على أرض أسبانية.

وعلى الأرض الأسبانية، وفي القرن الثاني عشر أيضًا، نشأ أول قاموس لاتيني عربي.. وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر بذل ريموند لول - المولود في جزيرة ميورقه - جهودًا كبيرة لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم اللغة العربية على يد عبد عربي⁽¹⁾.

وهناك آراء ترجع بداية الاستشراق إلى القرن العاشر الميلادي بدءًا من الراهب الفرنسي جريدي أورالبك 940 - 1003م الذي قصد الأندلس، وتلمذ على أساتذة من المسلمين في أشبيلية وقرطبة، حتى أصبح من أكثر علماء عصره إلمامًا بالثقافة العربية الإسلامية، وقد اعتلى سدة كرسي البابوية في روما سنة 999م، وتسمى باسم سلفيتري الثاني⁽²⁾.

كما يرجع بعض الباحثين بداية الاستشراق إلى بداية احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة وغزوة تبوك⁽³⁾.

(1) رودى بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية «المستشرقون الألمان من تيودورد نولدكه» ص 9، ترجمة د. مصطفى ماهر، نشر دار الكاتب العربي 1967م.

(2) نجيب العقيقي: المستشرقون ح 1 ص 110 طبعة 4، دار المعارف، وكذلك الدكتور مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، ص 1، نشر المكتب الإسلامي.

(3) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص 9، طبعة القاهرة.

ورأى فريق أن البداية الحقيقية للاستشراق كانت مع الحروب الصليبية حيث بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والصليبية الغربية الغازية، واستحكم العداء بين المسلمين والغرب الصليبي أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والملك العادل إثر الهزائم المتكررة التي ألحقها هؤلاء القادة العظام بالصليبيين، وكل هذا دفع الغرب إلى الانتقام بكل الوسائل⁽¹⁾.

ومما يؤكد هذا، ذلك الخبر الذي أورده ابن الأثير المؤرخ المعروف في كتابه (الكامل) ومفاده: أن بطريك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم، حين فتح صلاح الدين بيت المقدس، ولبسوا السواد، وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من بين أيديهم، ودخلوا بلاد الإفرنج يطوفونها، ويستنجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بالثأر، بأرض بيت المقدس...، وصوروا المسيح، وجعلوا صورة رجل عربي أمامه، والعربي يضرب المسيح، وقد جعلوا الدماء تسيل على صورة المسيح، وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله⁽²⁾.

كما أن المؤرخ بهاء الدين بن شداد (وهو معاصر للأحداث وقريب منها) يروي أنهم صوروا قبر المسيح (عليه السلام)، وصوروا على القبر فارساً مسلماً وقد وطئ قبر المسيح عليه السلام وبال الفارس على القبر، وأنهم أبدوا هذه الصورة وراء البحر - في بلادهم - ؛ في الأسواق والمجامع، يحملها القسوس ورؤوسهم مكشوفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور⁽³⁾.

ويؤكد جاردنر Gardner أن دوافع هذه الحروب الصليبية (التي تمخضت عنها الحركة الاستشراقية) كانت سياسية توسعية وإن تسربت بالمسوح الدينية،

(1) انظر قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص 20 دار الرفاعي بالرياض 1983م.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 9 ص 201، القاهرة 1343هـ.

(3) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص 121، القاهرة 1317هـ.

فيقول: لقد فشل الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين بالسيف ليقوموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي. والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام⁽¹⁾.

أما ليفونيان Levonian فيري - بحق - أن الحروب الصليبية كانت أعظم مأساة نزلت بالصلوات والعلاقات بين المسلمين والنصارى في الشرق. لقد فشل الصليبيون في إقامة مملكة في هذا العالم (الإسلامي) فزرعوا العداوة والبغضاء⁽²⁾.

ويقرر رشتري Richter أن دول أوروبا خابت في الحروب الصليبية الأولى عن طريق السيف، فأرادت أن تشن على المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس، والمستشفيات، وفرقت المبشرين في العالم⁽³⁾.

وهناك قسم آخر يرد نشأة الاستشراق إلى الحرب الدموية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس ونصاراها، خاصة بعد استيلاء (ألفونسو السادس) على طليطلة سنة 488هـ - 1085م فنشأت حركة التوبة والتكفير عن الذنوب، وكان مركزها في دير كلوني Cluny الذي سيطر عليه طائفة الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب بطرس المحترم الفرنسي، ومن هذا الدير انطلقت حركة تغيير النصرانية الأسبانية بكل كتبها وطقوسها، وجعلها نصرانية كاثوليكية رومية صرف؛ ذلك لأن هؤلاء الرهبان رأوا أن النصرانية الأسبانية قد أصابها الفساد لاكتسابها الكثير من

(1) Gardner, W.TY. The Reproach of Islam, Vol 2. P.221. Glodon, 1909.

عن (الاستعمار والتبشير) الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى الخالدي، 115، ط2، المكتبة العصرية، بيروت.

(2) Levonian, L: Islam and Christianity, London, 1940 P. 124.

(3) Richter J. : A history of Protestant Missions in the Near East P14.N. y. 191.

عن المرجع السابق «ص 115.

الإسلام، لذا بدأوا حربهم الصليبية ضد نصرانية أسبانيا وإسلامها على السواء⁽¹⁾. وقد نشط هذا الدير في حشد القوى الغربية للاستيلاء على أسبانيا من أيدي المسلمين بكل الوسائل، وكان أول أسقف على طليطلة بعد استيلاء النصارى عليها من رهبان هذا الدير.. (دير كلوني) ومن هذا الدير انطلقت حركة إصلاح عمت النصرانية الأوروبية، وجعل منه الرهبان - بعد أن أووا إليه في القرن الثاني عشر - مركزًا خطيرًا لدراسة الثقافة العربية، وقصد رئيس الدير نفسه (بطرس المحترم) الأندلس فيمن قصدها مستزيدًا من علومها، ولما رجع إلى ديره طفق يصنف الكتب في الرد على علماء الجدل المسلمين⁽²⁾.

ومعروف أن هذا المحترم بطرس قد كلف اليهودي المنتصر بطرس أوييدرو (ألفونسي أو العبري، أو الطليطي) أن يترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وبالرغم من أن هذه الترجمة قد عزاها البعض إلى (هرمان الأرماني وروبرت أوف جستر) الراهبين اللذين قيل فيهما إن بطرس المحترم قد صرفهما عن دراسة الفلك في الأندلس إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، فإن المترجم الحقيقي نفسه يقول في مقدمة هذه الترجمة ما نصه: «أنا بطرس الطليطي الذي ترجمت هذا الكتاب من اللسان العربي إلى اللاتيني، وذكر أيضًا أن راهبًا من دير كلوني كان قد أرسله بطرس المحترم قد أصلح لغتي اللاتينية لأنني لا أجيدها مثل إجادتي اللغة العربية. وبطرس الطليطي هذا من عائلة يهودية نزحت من قرطبة حين استولى الموحدون عليها إلى طليطلة...، وقد نسبت هذه الترجمة إلى بطرس المحترم

(1) د. قاسم السامراني مرجع سابق، ص 21، وانظر:

Mackay, A. :Spain in the Middle Ages. PP. 22 - 23. London

وللتعرف على بعض ما فعله هؤلاء انظر «الوثيقة الأندلسية» عن اضطهاد النصارى للمسلمين الأندلسيين، وتعليق المستشرق مونرو عليها، وترجمتنا لها، نشر دار الهداية بالقاهرة 1986م.

(2) نجيب العقيقي، ج 1 ص 122 - 123، وانظر (رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله أمير سرقسطة وجواب القاضي الباجي عليها) وهذا الراهب هو رئيس دير كلوني، والرسالة بتحقيقنا، ونشر دار الصحوة بالقاهرة 1986م وانظر مجلة (Andalous) العدد (1952)، (1963).

James Kritzeck – Peter The Venerable and Islam, Princeton, 1964

رئيس دير كلوني لأنه هو الذي أمر بها (حتى يستطيع دحض القرآن)⁽¹⁾.

ورأى قسم آخر أن نشوء الاستشراق كان لحاجة الغرب للرد على الإسلام أولاً، ثم لمعرفة أسباب هذه القوة الدافعة لأبنائه ثانياً، خاصة بعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م، ومن ثم وصول العثمانيين إلى أسوار فيينا، إذ وقف الإسلام سداً مانعاً من انتشار النصرانية⁽²⁾.

وأرى من جانبي أن الاستشراق قد بدأ بداية حقيقية منتظمة بقرار المجمع الكنسي في فيينا بالموافقة على تدريس اللغات الشرقية في خمس من جامعات أوروبا الكبرى، هي: باريس، وأكسفورد، والجامعة البابوية، وبولونيا، وسلمنكا سنة 1312م. ثم توسعت أوروبا في فتح أقسام جديدة وإنشاء كراسي أستاذية في عدد من جامعات الغرب؛ ففي سنة 1587م بدأ تدريس اللغة العربية بصورة منتظمة في College de France في باريس، وفي سنة 1613م في جامعة ليدن في هولندا، وفي كمبردج سنة 1632م، وأنشئ كرسي أستاذية للعربية والدراسات الإسلامية في أكسفورد سنة 1634م، ويرى الدكتور ألبرت حوراني أنه منذ ذلك الوقت بدأت دراسات مهمة ومكثفة للمصادر العربية، وقد برزت معها صورة محمد (ﷺ) أكثر وضوحاً⁽³⁾.

وقد أنجز George Sale أول وأهم ترجمة للقرآن الكريم في القرن السابع عشر وكتب لها مقدمته الذائعة التي اعتمد عليها Lodovico Marracci في ترجمته اللاتينية للقرآن الكريم.

ثم نشر Simone Okely كتابه عن تاريخ المسلمين «History of Saracens» في نفس القرن، وهكذا فقد نشطت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، وأصبح لها مراكز وتقاليد علمية وأساتذة ودارسون مهتمون متخصصون.

(1) مرجع سابق ص 23.

(2) د. قاسم السامرائي، مرجع سابق ص 22/23، وانظر كذلك:

Terror_Roper_Hugh. The Rice of Christlan Europe. PP92_93. England. 1973.

(3) A. Hourani. Islam In European Thought. PP. 12.13.

وأما ما ذهب إليه الدكتور جورج مقدسي بأن القرن التاسع عشر هو الذي شهد ميلاد الدراسات الإسلامية في الغرب⁽¹⁾ فإنه يحمل على أن هذا القرن قد شهد نهضة كبيرة في الدراسات الاستشراقية، وقد ساعدت الحكومات الأوروبية الاستشراق طمعاً في الحصول على خدمة الأخير لأغراضها الاستعمارية، وفي هذا القرن تأسست الجمعيات الاستشراقية الكبرى مثل:

- Asiatic Society of Bengal 1786
- Royal Asiatic Society in London 1823
- Societe Asiatique in Paris 1822
- Deutsche Morgenlandische Gesellschaft in 1845

وكل جمعية من هذه الجمعيات أصدرت لها مجلة استشراقية لنشر بحوث المستشرقين ودراساتهم.

كما أن سلسلة المؤتمرات الاستشراقية قد بدأت سنة 1873م، وقد كانت هنالك اتصالات واسعة بين المستشرقين وشبكة من المراسلين في شتى أنحاء العالم؛ وكان جولديزهر يوصي المستشرقين قائلاً: «Always answer letters and attend the Congress of Orientalists»⁽²⁾.

وعلى كل حال فإن القول بأن الاستشراق قد ولد- ابتداءً- في أحضان الكنيسة والأديار النصرانية الرومانية يبقى صحيحاً على إطلاقه، وكل الاجتهادات المطروحة تؤكد هذه الحقيقة وتوثقها وتعمقها، وعلى كل حال يمكن التعرف على كثير من التفاصيل المفيدة في كتاب المستشرق Normon Daniel بعنوان Islam and The West (طبع في لندن 1963)، وكذلك كتاب المستشرق Southern بعنوان: West-ern Views of Islam in the Middle Ages (طبع في جامعة هارفارد 1962م).

(1) Studies on Islam " PP. 217 - 22. George Makdisi: Hanbalite Islam Tranlated and edited by Merlin L. S. New York Oxford, 1981.

(2) A.Hourani, Ibid.